المقومات الحضرية للمدن الإسلامية المقدسة

(مدينة النجف الأشرف)

الأستاذ الدكتور

عبد الصاحب ناجي البغدادي

abdulsahib.albaghdadi@uokufa.edu.iq

جامعة الكوفة ـ كلية التخطيط العمراني

المدرس المساعد

كريم منعم عبد الحسين العبدلي

kareemabdaly@yahoo.com

جامعة الكوفة ـ كلية الهندسة

Urban components of Islamic holy cities

(The Holy City of Najaf)

Prof. Dr.

Abd al-Sahib Naji al-Baghdadi

University of Kufa - College of Urban Planning

Assistant Lecturer

Karim Moneim Abdel Hussein Al Abdali

University of Kufa - College of Engineering

الملخص:-

للمدن الإسلامية المقدسة مقومات حضرية خاصة ، تتميز بها عن باقي المدن في العالم الإسلامي، من جانب طبيعة تكوين خصائصها المادية والمعنوية، على المستويين المعماري والعمراني، ونتناول أسباب نشوء بعض المدن وخصوصيتها ومكانتها وطبيعة تكوينها وما تعرضت له من تغيير وتطوير على مر الزمان لتتلائم مع متطلبات العصر.

ويمكن تصنيف المدن المختارة في البحث حسب مكانتها عند المسلمين وطبيعة قدسيتها إلى ثلاث انواع رئيسية:

الأول: المدن ذات الطابع المقدس قبل الإسلام والتي كانت اماكن مقدسة نتيجة لاديان سماوية سابقة (دين اليهودي، والمسيحي) أو اسباب دينية كما في مكة المكرمة والقدس.

والثاني: المدن التي اكتسبت قدسيتها نتيجة لاحداث مهمة فيه كما في المدينة المنورة والكوفة والتي اتخذت من احداث التي ارتبطت بالسيرة النبوية المطهرة نزرا من طهارة وقدسية النبي الكريم ﷺ أو الأئمة المعصومين.

والثالث: المدن التي اكتسبت طبيعة التقديس من الخصوصية المكانية المرتبطة بأشخاص صالحين كما في مدينة النجف والتي اكتسبت قدسيتها من مرقد الامام علي عليه السلام.

الكلمات المفتاحية: المدينة الإسلامية، مدينة النجف القديمة، المدن المقدسة.

Abstract:-

Islamic holy cities has aprivet urban elements, characterized by the rest of the cities in the Muslim world, by the nature of the composition of the material and moral characteristics,in the the architectural and urban levels, and we address the reasons for the emergence of some cities and privacy, prestige and the nature of its composition have been exposed to change and develop over time to conform with the requirements of era.

And it can be classified the selected cities in the research by its place Muslims and the nature of sanctity into three main types: the first: with the sacred character of the cities by Islam and that was the holy sites as a result of religions celestial precedent (the Jewish religion, and Christian) or religious reasons, as in Mecca and Jerusalem. The second: the cities that gained its sanctity as a result of important events in which, as in the city of Medina and Kufa and taken from events associated with the biography of the Prophet cleared of purity and sanctity of the Holy Prophet, peace be upon him, or the infallible Imams.

And third: the cities that gained the nature of the sanctification of spatial Privacy associated with people as good in the city of Najaf, which acquired the sanctity of the shrine of Imam Ali, peace be upon him.

Keywords: The Islamic City, the old city of Najaf, the holy cities.

١ـ المقدمة:ـ

نتحدث هنا عن بعض اهم المدن المقدسة في العالم الإسلامي من جانب طبيعة تكوين خصائصها المادية والمعنوية، على المستويين المعماري والعمراني، ونتناول أسباب نشوء بعض المدن وخصوصيتها ومكانتها وطبيعة تكوينها وما تعرضت له من تغيير وتطوير على مر الزمان لتتلائم مع متطلبات العصر. وقد ركزنا النظر على أهم تلك المدن في العالم الإسلامي العربي (مكة المكرمة)، وبشكل خاص على المدن العراقية (النجف الاشرف، الكوفة، كربلاء المقدسة) لخصوصيتها وارتباطها بمجال البحث. ونتحدث عن اهم المقومات الحضرية لهذه المدن.

٢- طبيعة المدن الإسلامية المقدسة، الأصل والتكوين:

ويمكن تقسيم المدن المختارة في البحث حسب مكانتها عند المسلمين وطبيعة قدسيتها إلى ثلاث انواع رئيسية:

الأول: المدن ذات الطابع المقدس قبل الإسلام والتي كانت اماكن مقدسة نتيجة لأديان سماوية سابقة (دين اليهودي، والمسيحي) أو اسباب دينية كما في مكة المكرمة والقدس.

والثاني: المدن التي اكتسبت قدسيتها نتيجة لأحداث مهمة فيه كما في المدينة المنورة والكوفة والتي اتخذت من احداث التي ارتبطت بالسيرة النبوية المطهرة نزرا من طهارة وقدسية النبي الكريم ﷺ أو الأئمة المعصومين.

والثالث: المدن التي اكتسبت طبيعة التقديس من الخصوصية المكانية المرتبطة بأشخاص صالحين كما في مدينة النجف والتي اكتسبت قدسيتها من مرقد الامام علي عليه السلام.

وسوف يتم تناول بعض المدن بشكل مفصل وكما يلي:

٢-١ مدينة مكة المكرمة.

٢-٢ مدينة الكوفة.

٢-٣ مدينة النجف الاشرف.

٢-١ مدينة مكة المكرمة.

٢-١-١ تاريخ مكة المكرمة

يقال لمكة البلد الحرام، ويتضح من حديث الرسول ﷺ ان مكة ارض حرام منذ خلق الله السماوات والارض. (تاريخ مكة المكرمة، ص١٠) وهي مدينة مقدسة بها المسجد الحرام والكعبة (قبلة المسلمين في الصلاة)، وتقع مكة المكرمة على خط عرض(٢١،٢٥،١٩) في الشمال(٣٩،٥٩،٢٦) في الشرق، كما ترتفع بمقدار (٣٠٠) معن سطح البحر. شكل (١) وتمتاز تضاريسها بالمرتفعات الجبلية ذات التركيب الجرانيتي. كما تبعد إلى الجنوبي الغربي عن المدينة المنورة بحوالي (٤٠٠)كم، وعن الطائف بحوالي (١٢٠) كم شرقاً.

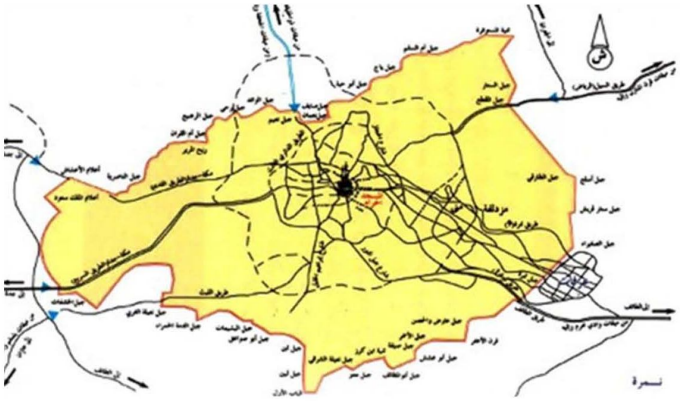

شكل (١): حدود منطقة الحرم المكي

ويظهر المسجد الحرام والطرق الرئيسية المرتبطة به (في الوقت الحاضر) كمركز إلى كل المدينة.

المصدر: (تاريخ مكة المكرمة، مجموعة من العلماء، ص١٣).

وقد امتلكت مكَّة (المكرَّمة) عند العرب مكانة تجارية وثقافية كبيرة، كما كان لها اعتبارات قدسية ودينية منذ قديم العصور، حيث يعتقد ان تاريخ تأسيسها يرجع إلى ما قبل ميلاد النبي إسماعيل عليه السلام وقيامه مع أبيه النبي إبراهيم عليه السلام حيث تم رفع أساسات الكعبة، مع الاخذ بنظر الاعتبار كون بدايتها كمدينة كان عبارة عن بلدة صغيرة دمرت نتيجة طوفان كبير في عهد نبي الله نوح عليه السلام.

وقد أصبحت مكة بعد الطوفان واد جاف يحيط بها الجبال من جوانبه المختلفة، إلاّ ان توافد الناس إليها والاستقرار بها لم يكن إلاّ في عهد نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام،

ويرتبط هذا الحدث ارتباطا وثيقا مع معجزة تفّجر بئر زمزم عند اقدمي إسماعيل (الطفل الرضيع آنذاك).

لقد ظهر الإسلام في مكة على يد نبي الرحمة محمد بن عبد الله ﷺ في حدود القرن السابع للميلاد بعد ان كانت معظم الجزيرة العربية بما تمثله من قبائل بدوية تدين بالوثنية مع قلة قليلة تدين تحت ما يعرف بالدين اليهودي والدين المسيحي.

وقد اضافت قدسية مكة اهمية كبيرة للمدينة وجعلها مركزاً ومحوراً مهماً في التاريخ الإسلامي، ولا يمكن اهمال تأثيرها في أي حال من الاحوال.

٢-١-٢ أسماء مكة

لقد تعددت أسماء مكة في القرآن الكريم حيث وردت بخمسة اسماء مختلفة وهي مكة وبكة والبلد الامين والقرية وام القرى. (تاريخ مكة المكرمة، ص١٥)، ويمكن لأسمها ان يكون مشتقاً من الكلمة السامية (بك) بمعنى الوادي، وقد ورد هذا اللفظ بعينه في القرآن الكريم(سورة آل عمران) بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾.

ومن أسماء مكة ايضاً التي ورَدتْ في القرآن الكريم هو لفظ (مكّة) ولمرة واحدة فقط، وذلك في سورة الفتح في الآية الكريمة: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾. (الفتح: ٢٤)كما ذكرت أيضاً في القرآن الكريمة (أم القرى) في سورة الأنعام ﴿هَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، وكذلك سميت بالبلد الأمين في سورة التين بقوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ، وَطُورِ سِينِينَ، وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾.(التين: ١-٣)

إضافة إلى عدد كبير من أسماء عرفت به هذه المدينة كتهامة، وأم زحم، ومعاد، والحاطمة، والبيت العتيق وغيرها من الاسماء، إلاّ ان الأسماء التي وردت بالقرآن تبقى الاهم والاشهر بين تلك الاسماء.

٢-١-٣ قدسية مكة وقِدمها

تذهَب اغلب الرِّوايات التي تتحدَّث عن الجذور التاريخيَّة لمكَّة ان الله خلق الأرض

من رحم مكة، ومنها ايضا دحا الارض. شكل (٢) حيث بنى الملائكة في هذا الموقع بيت الله (الذي يعده الجغرافيون مركزاً للأرض)، لتكون مطاف ومزار لهم في الارض، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾. (آل عمران: ٩٦)

شكل (٢): مكة، البلد الحرام
الكعبة المشرفة وهي مركز مدينة مكة المكرمة والاساس الحضري في تكوينها

ويظهر من قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٧)، وكذلك من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ (الحج: ٢٦)ان البيت معروف قبل النبي ابراهيم عليه السلام الا ان قصة هجرة النبي مع زوجته هاجر وابنه اسماعيل من العراق (مدينة اور المعروفة) إلى ارض كنعان (فلسطين) ليصل إلى مكة ويقوم برفع اسس البيت وبناءه كما يظهر في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.(إبراهيم: ٣٧) ليصبح البيت اقدم مسجد معروف ليومنا هذا.

ويذكر التاريخ ان الذي جدد بناءها بعد النبي ابراهيم عليه السلام هو (قصي بن كلاب) بعد ان رأى فيها مركزا يجتمع حوله بيوتات قريش من جهة، ويعزز مكانتهم عند العرب من جهة اخرى نظرا لمكانة البيت العتيق عند العرب فلا يقاتلوهم ولا يستطيعون اخراجهم.

واغلب الشواهد على بناء البيت المعمور موجودة في الحرم لتروي قصة بناء الكعبة المشرفة فالحجر الذي صعد عليه النبي ابراهيم عليه السلام موجود إلى الان يعرف بـ(مقام إبراهيم)كما يوجد حائط البيت (الكعبة) ومكان الحجر الاسود.

ويذكر التاريخ ان مكة المكرمة قد تعرضت إلى تصدعات خطيرة إلى نتيجة تأثر احجارها بسيل مدمر وحريق كبير (ثمانية عشر عام قبل هجرة الرسول)هدد بقاءها وصمودها فقامت قبيلة قريش بتجديد بناءها بعد ان قامت بهدمه، كما تعرضت من جديد إلى التخريب المتعمد من قبل بعض الحكومات نتيجة للخلافات السياسية والاطماع نحو قبلة الخلافة، كما في قصة ضرب الكعبة بكرات من نار بالمنجنيق في عهد خلافة يزيد نتيجة رفض ابن الزبير لخلافة يزيد وعدم مبايعته له، فهدمها ابن الزبير سنة (٦٤) هجرية (٦٨٣ ميلادية) واعاد بناءها على ما كان ظاهراً من اسس.

٢-١-٤ مدينة مكة والمشاهد التاريخية الكبرى

يعد الحرم الشَّريف أوَّل الحرمين وثاني القبلتين، قلب مكَّة ومركزها، ويعني حرم مكة ان من دخله كان آمناً، وكذلك كان هذا الحال في الجاهلية. (تاريخ مكة المكرمة، ص١٤) وتقع الكعبة المشرَّفة (بيت الله) وسطَ الحرَم المكّي وهي أرض الله الحرام، ويمكن ان توصف الكعبة بأنها عبارةٌ عن بيتٍ مربَّع البنيان ذات ارتفاع يقارب العرض، ومن هنا جاءَ اسمُ الكعبة.

وللكعبة أربعة أركان: الركن الأول: وهو مبتدى الطواف ومكانه بين الشرق والجنوب، ويقع عنده الحجر الأسود (أو الأسعد)، ومكانه اعلى من الارض بمتر واحد. والركن الثاني: الركن الشامي ويقع بين الغرب والشرق. والركن الثالث: الركن الغربي ويقع ما بين الغرب والشمال. والركن الرابع: الرُّكن اليماني ويقع ما بين الجنوب والغرب. كما توجد معالم كثيرة يمكن ان نبينها ومنها:

مقام إبراهيم: وهو الحجر الذي صعد عليه النبي ابراهيم عليه السلام، وهو بالأساس ملصق لجدار الكعبة إلاّ ان الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب ابعده من مكانه عن البيت ليفسح المجال للمصلين والطائفين حول الكعبة.

الحجر: أو ما يسمى بالحطيم ويقع الحجر شمال الكعبة المشرفة، وشكله اقرب ما يكون إلى نصف دائرة.

الصفا والمروة: يعتبر السعي بين الصفا والمروة ركن اساسي من أركان الحج وهما جبلان معروفان في مكة، ويقع بين الصفا والمروة ما يقدر بأربعمئة وثلاث وتسعون خطوة، ويختلط مسار الحجيج في السعي بين الصفا والمروة بمسار المتسوقون من الاسواق المنتظمة القريبة منه مما يسبب بعض الازدحامات، وقد جعلت هذه المشكلة من فكرة ان يكون المسعى بطابقين جزءاً من الواقع لتقليل وقع هذه المشكلة، كما ان وجود الحاجز في وسط المسعى ضروري لتنظيم الحركة بين الذهاب والاياب بين الجبلين مع ذكر اهمية المنطقة الوسطية المخصصة للمعاقين وكبار السن غير القادرين على مجاراة الحجاج.

بئر زمزم: يقع قرب الكعبة المشرفة، يمكن الوصول اليه من تحت سطح المطاف، وينقسم بئر زمزم إلى قسمين، القسم الأول منه على عمق (١٢,٨٠ متر) عن الفتحة الرئيسية للبئر، والقسم الثاني محفور في صخر الجبل وطول هذا القسم (١٧,٢٠ متر)، ويتغذى البئر عن طريق ثلاثة عيون، الاولى رئيسية في جهة الكعبة تقابل الركن، واخرى تقابل جبل أبي قبيس وجبل الصفا، والاخيرة تقابل جبل المروة.

٢-١-٥ مشروع تَوسِعَة الحرمين الشريفين

لقد بلغت مساحة المسجد الحرام حدها ولم تتوسع منذ عهد المقتدر بالله منذ سنة(١٠٦٩) ميلادية، الا ان الظاهر توسعت المباني والدور السكنية من حوله حتى اتصلت به، حتى ان المسعى اصبح ضيقاً بسبب هذا التوسع.(تاريخ مكة المكرمة، ص٨٥)

إلاّ أن أول توسعة للحرم المكي في العصر الحديث ترجع إلى عام (١٩٦٥) ميلادية، ويمكن ابراز أهمُّ سمات تَوسِعة الحرم المكي الشَّريف لزيادة الطَّاقة الاستيعابيَّة لزُوَّار المسجد الحرام حتى يصل إلى ستمئة ألف مُصَلٍّ، من خلال اضافة بناء ومساحات جديدة إلى الحرم من جهة الغرب، كما تم تحسين الفضاءات المحيطة بالحرم وتعبيد الطرق المؤدية لها لتوفير المساحات الجيدة بهدف استيعاب الكثير من المصلين. (تاريخ مكة المكرمة، ص٨٦-٨٧)

وقد هدمت السعودية بعض الأقسام القديمة في أكثر مساجد الإسلام أهمية، وذلك في عملية توسيع اثير حولها الكثير من الجدل، شكل (٣)حيث تم هدم بعض أجزاء من آثار تعود إلى الدولة العثمانية والدولة العباسية للجانب الشرقي من المسجد الحرام. وكذلك قامت بتهديم الأعمدة رغم انها تعد من آخر ما تبقى من المسجد التي تعود إلى مئات

السنين، وتعد خسارة كبيرة لتراث الامة الإسلامية المادي وفشل ذريع في عمليات الحفاظ[١].

شكل (٣): التوسعة الجديدة في الحرم المكي

ويظهر المعالجات المعمارية والعمرانية للحرم المكي والتي اثارت جدل كبير في الاوساط المعمارية

وعلى اساس التوسعة تَمَّ إزالةُ الكثير من المباني المتقادمة والقديمة حول الحرم، كما تَمَّ تشييد ادوار علوية، إضافة إلى انشاء سقفٍ دائري مُقبَّب فوق مسعى الصفا والى جواره منارةٌ يصل بارتفاع(٢٩) مترٍ. (تاريخ مكة المكرمة، ص٨٨-٩٣) شكل (٤)

شكل (٤): سبيل ماء بالحرم المكي الشريف، تمثيل جميل لمفردات العمارة الإسلامية

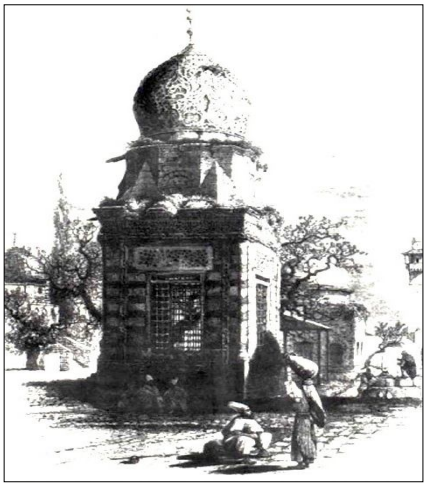

المصدر: (يحيى وزيري، ٢٠٠٤، ص٢٧٢)

وقد حمل مشروع توسعة الحرم نقد واسع بعده مشروع استثماري ودعائي أقرب منه لخدمة للحجاج أنفسهم فضلا عن اعتدائه على الشكل الحضاري والتاريخي للمدينة المقدسة

وتدمير معالمها التاريخية وتحويلها لنسق مشوه من المدن السياحية والتجارية الغربية.

٣-٢ مدينة الكوفة

من المدن العراقية المهمة في تاريخ العراق على مر المراحل، وتقع في محافظة النجف بالغرب من جانب الفرات الأوسط، وتبعد بمسافة (١٧٠) كيلومتر عن مدينة بغداد جنوباً، كما تبعد بمسافة (١٠)كيلومتر عن مدينة النجف بالاتجاه الشمالي الشرقي. وسميت مدينة الكوفة بالزكية الطاهرة لان فيها قبور النبيين والمرسلين والاوصياء والصادقين، ومنها يظهر عدل الله وفيها يكون قائمه المهدي (عج)، لذلك جاءت اهمية وقدسية هذه الارض المباركة. (البراقي، ١٩٨٧م، ص٥٦)

٣-٢-١ انشاء الكوفة (أواخر سنة ١٧هـ /٦٣٨م)

يقول العرب للرملة الحمراء (كوفة) ويقولون ايضاً لكل رمل وحصباء مختلطين (كوفة)، واختلف في سبب تسميتها فقيل سميت لاستدارتها، وقيل لاجتماع الناس بها، أو لاختلاط ترابها بالحصا. (البراقي، ١٩٨٧م، ص١٠٧)

لا شك ان انشاء الكوفة سنة ١٧ من الهجرة الموافق لسنة ٦٣٨م ارتبط مباشرة بفتح العرب للعراق، وتشكل القلب للمنطقة التي تدور فيها المعارك بين العرب والامبراطورية الساسانية. (هشام جعيط، ١٩٨٦م، ص١٥) وكان لهذا السبب الاثر الكبير في تحديد طبيعة خاصة لتركيبة المجتمع الكوفي ذي النزعة العسكرية. (الحسيني، ٢٠٠٩م، ص١٧٥-١٧٦)

ويرى العميد في بحثه عن تأسيس مدينة الكوفة ان اختيار مكان مدين الكوفة لجنود سعد بن ابي وقاص جاء مناسباً لطبيعة المهمة القائمة على سياسة الفتوح لان المدائن التي نزلوا بها لا تلائم الطبيعة العسكرية للجنود رغم وجود التحصينات في المدينة لأنها تساهم بشكل أو باخر في تقاعس الجنود أو تثبيطهم عن الفتح بالنظر إلى طبيعة المدينة المتكاملة من مرافق عمرانية واجتماعية، لذلك فضل موقع الكوفة. (العميد، ١٩٧٨م، ص١٠١-٩٩)

وقال عنها ابن حوقل ان مساحة الكوفة مقاربة لمساحة البصرة، الا ان الهواء فيها اصح والماء فيها اعذب، وهي محط لقبائل العرب الا انها خراب بخلاف البصرة لان ضياع الكوفة قديمة جدا قبل الإسلام وضياع البصرة احياء موات الإسلام. (الدجيلي، جعفر، ج١،

١٩٩٣م، ص١٤٤) وازدهرت الكوفة ونمت بسرعة خصوصا بعد ان اتخذها الامام علي ابن ابي طالب عاصمة للدولة العربية الإسلامية عام (٣٦هـ -٦٥٧م)، ولم يؤثر عليها كثيراً انتقال مقر الخلافة إلى دمشق فقد اتخذها الامويون مقرا لوالي العراق وبالتبادل مع البصرة قبل بناء واسط. (الحسيني، ٢٠٠٩،ص٢٥-٢٦)

٣-٢-٢ مسجد الكوفة ودار الامارة

تروي كتب التاريخ ان مسجد الكوفة خط بيد القائد سعد بن ابي وقاص بنفسه، وقد جعله مربع الشكل حيث أمر رجلا قوي الذراع ان يطلق اربعة سهام بالاتجاهات، وأمر ان تكون مواقع تلك السهام حدوداً له، وأمر ان تعلم حدود المسجد بخندق يفصله عما حوله من ابنية اخرى. ويظهر ان القائد قد جعل للمسجد ظلة اي بيت صلاة كان سقفها يستند على اعمدة من رخام ذات تيجان جميلة. شكل (٤-١٣)(الدجيلي، جعفر، ج١، ١٩٩٣م، ص٨٢).

شكل (٤-١٣) صورة جوية لنسيج مدينة الكوفة الحديث

صورة حديثة لمسجد الكوفة المعظم تظهر بوضوح وجود بيئة عمرانية ملاصقة وارتباطه بالمحاور الرئيسية للمدينة

ويذكر كتاب تراث الإسلام (الجزء الأول) في (ص٨٠،٨١) ان من أشهر معالم الكوفة مسجدها الجامع شكل (٤-١٤) وهو أحد المساجد المشهورة الأربعة(المسجد: الحرام، والنبوي، والاقصى، والكوفة المسجد الرابع).

ويعد مسجد الكوفة في العراق أحد أقدم المساجد في العالم الإسلامي، بنى المسجد سعد بن أبي وقاص عام (١٩) هجرية(٧٣٩) ميلادية ليكون أول بناء يبنى في مدينة الكوفة التي ستتحول إلى كبرى الحواضر الإسلامية ومقر خلافة الامام علي بن أبي طالب. ينال المسجد قدسية كبيرة عن المسلمين الشيعة خاصة ويضم المسجد مراقد العديد من

الشخصيات الدينية اشهرهم مسلم بن عقيل.

شكل (١٤.٤)صورة جوية لمسجد الكوفة المعظم

ويظهر المسجد الكوفة عام ١٩١٥م بوضوح مع عدم وجود بيئة عمرانية كما هو موجود في الوقت الراهن

المصدر: http://english.masjed-alkufa.net/news.php?readmore=4

إن مسجد الكوفة اقدم المساجد عدا بيت الله الحرام، وقد ورد في الأخبار المأثورة في كتب السير والتواريخ. وورد أنه كان معبد الملائكة من قبل خلق آدم، وأنه البقعة المباركة التي بارك الله فيها، وأنه معبد آدم وما بعده من الأنبياء والمرسلين ومعبد الأولياء والصديقين، وأن من فضله عند الله أن المسافر حكمه التقصير في الصلاة إلا في أربعة مواضع: أحدها مسجد الكوفة، فله التخيير في القصر والإتمام.

وقد وردت في فضل مسجد الكوفة أخبار كثيرة، ذكرها العديد من العلماء، وكذلك ذكرها أهل السير والتواريخ من الخاصة والعامة، وأطنبوا في ذكرها وما في مسجدها من الفضل على سائر المساجد عدا بيت الله الحرام ومسجد النبي محمد. شكل (٤-١٥) (البراقي، ١٩٨٧م، ص٢٣)

شكل(١٥.٤) مسجد الكوفة المعظم مع الصحن الجديد

ويظهر في الصحن مرقدي مسلم بن عقيل إلى اليسار وهاني بن عروة إلى اليمين رضوان الله عليهما

ويتسع لأربعين ألف مصلٍ، يتوسط صحنه بقعة منخفضة ينزل إليها بسلم وتسمى (السفينة).قال رسول الله ﷺ: ان الله اختار من البلدان اربع فقال عز وجل والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين) فالتين المدينة، والزيتون بيت المقدس، طور سنين الكوفة، وهذا البلد الأمين مكة) و فيه دفن مسلم بن عقيل و هاني بن عروة و المختار بن أبي عبيد.

٣-٢-٣ التخطيط والنسيج الحضري

تذكر موسوعة المدن العربية والإسلامية (ص٧٣) ان بغداد المدورة رغم انها كانت حاضرة الدنيا ومركز الخلافة ولؤلؤة الشرق، الا ان تقسيمها إلى منطقتين فضائيتين (أي المساحة العمومية ومساحة للإقامة) يظهر استمرارا ممتازا لتركيبة الكوفة. اضافة إلى تحديد المركز المساحة العمومية (وكما وجد بالكوفة وواسط) حيث يوجد القصر والجامع الأعظم وقد كان القصر كذلك أوسع من المسجد كما أن هناك دارا للشرطة وبعض البنايات الادارية الاخرى، وكما هو الشأن بالكوفة أيضا فانا نجد حزاما سكنيا يحيط بالمساحة العمومية وتخترقه السكك المختطة اختطاطا هندسياً. شكل (٤-١٦)(جعيط، ١٩٨٦م، ص٤٣٩).

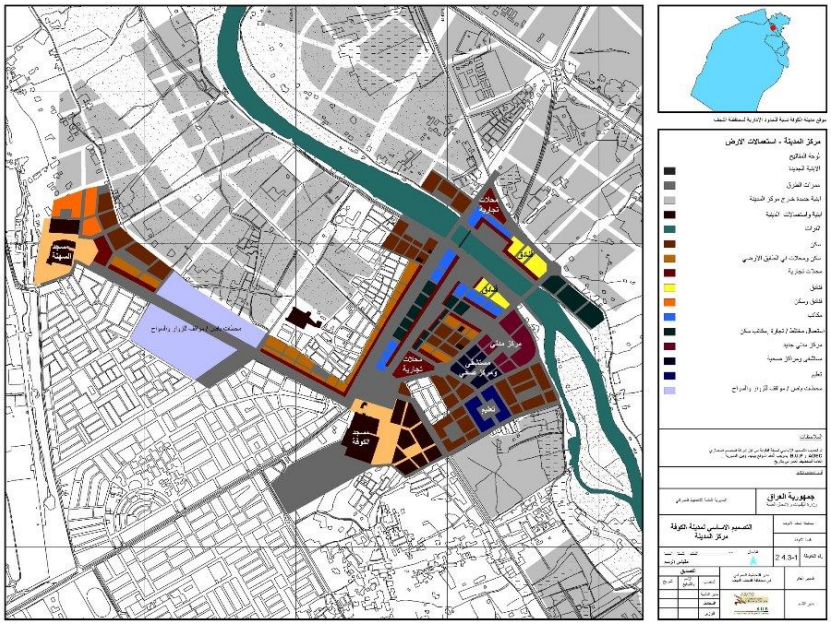

والمعروف ان الكوفة كانت مقراً لوالي سيطر على منطقة واسعة من العراق طيلة حكم العباسيين لذا فان الاهتمام بالدار كان كبيرا ويظهر ان تغييرا اساسياً لم يحدث في تخطيط الابنية الداخلية التي تعود إلى العصر السابق. فقد انشئت معظم الابنية الجديدة على نفس اسس الابنية السابقة ولكن هناك اضافات اخرى. ويستدل من تخطيط هذه الابنية وعماراتها ان الطراز الذي ساد وانتشر في العراق خلال القرون السابقة لتجديد الدار هو المتبع ايضا في بناء هذه المرافق ويدعى هذا الطراز بالطراز الحيري الذي كان سائدا في العراق قبل الفتح الإسلامي.(الدجيلي، جعفر، ج١، ١٩٩٣م، ص٨٨)

وقد اكدت التحريات الفنية التي اجرتها الجهات المعنية في جامع الكوفة المعلومات التأريخية بشأن شكله وسعته وكشفت ان البناء قد شيد بطابوق جديد موحد القياسات وانه غير منقول من ابنيه سابقة وبذلك ثبت خطأ نظرية من حاول ان يدس على العرب المسلمين بانهم هدموا ابنية الحيرة واستخدموا طابوقها للابنية في مدية الكوفة.

ويذكر التاريخ ان القائد سعد بن أبي وقاص اسسها سنة (٦٣٨) ميلادية كمعسكر لجيشه الكبير بالقرب من مدينة الحيرة. كما نمت الكوفة في أيام حكم الامويين بشكل ملحوظ. وكانت قاعدة مهمة لجيوش المسلمين في مهاجمة المدائن حاضرة الفرس.

وتحوي الكوفة موقع استشهاد الامام علي عليه السلام وهو موقع مهم بالنسبة إلى المدينة، ويعد هذا اليوم (التاسع عشر من رمضان)مهما عند المسلمين بوجه عام والشيعة بوجه خاص حتى يوم استشهاده

كما تحتوي المدينة العديد من الاماكن الدينية ذات الخصوصية المكانية ومنها مسجد الكوفة المعظم، ومحراب أمير المؤمنين الذي استشهد فيه وداره، وكذلك مرقد مسلم ابن عقيل، وهانئ ابن عروة عليهما السلام.

٤-١ مدينة النجف الاشرف

النجف مدينة قديمة العهد التي ورد ذكرها في التاريخ والتي كان بها الخورنق والسدير والقصران الشهيران وهي مسكن ملوك العرب في الجاهلية من زمن نصر ثم لخم النعمان وابائه وقيل سميت بالحيرة لان تبعاً الاكبر عندما قصد خراسان خلف ضعفة جنده بذلك

الموضع وقال لهم حيروا به أي أقيموا (وقيل ان أول من نزلها مالك بن زهير بن عمرو.... بن الحاف بن قضاعه فلما نزله بها جعلها حيرا وأقطعه قومه فسميت الحيرة بذلك)، وقال الهمذاني انما سميت الحيرة لان تبعاً لما أقبل بجيوشه فبلغ موضع الحيرة ضل دليله وتحير فسميت الحيرة.(بوزورث، كليفورد، شاخت، جوزيف، ١٩٨٥م، ص٨٤)

٤-٢ تمصير مدينة النجف وأسبابه:

نزل الأمام علي عليه السلام في الكوفة بعد واقعة الجمل، وأتخذها عاصمة للخلافة للإسلامية سنة ٣٦ هـ ، لأسباب سياسية وعسكرية تتعلق بموقعها وسط العالم الإسلامي، وأصبح ظهر الكوفة مقبرة لموتى المسلمين في الكوفة، ومنهم عدد من صحابة رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتابعين.. وأول من تم دفنه في منطقة النجف هو الصحابي خباب بن الأرت اذ قام بالصلاة عليه الإمام علي عليه السلام وذلك في سنة ٣٧ هـ، وفي سنة ٤٠ هـ أستشهد الإمام علي عليه السلام في محراب مسجد الكوفة في الليلة التاسعة عشر من شهر رمضان.

٤-٣ مكان القبر الشريف:

قبل يوم استشهاد الإمام علي عليه السلام أوصى أن يدفن في قبر جهزه للدفن وأشترى ما حوله في منطقة ظهر الكوفة بعد الثوية لمن يأتي من اتجاه الكوفة.(ياسر، ١٩٨٨، ص ٥) يسارا من الغري يمينا من الحيرة وبين منطقة الذكوات البيض وقريبا من قبري انبياء الله هود وصالح مجاورا لقبري آدم ونوح.

يعتقد بعض علماء الآثار والباحثون في علم طبقات الأرض إن مدينة النجف والمناطق المحيطة بها ، ترجع تاريخيا إلى عصر (البلايستوسين المتوسط) وما بعده وصولا إلى العصر الحجري القديم ويقدر زمنيا بما يفوق مليون سنة. مستندة فوق هضبة تتكون من الحجر الرملي ذو اللون القريب من الأحمر (الخليلي، جعفر، ١٩٦٥م).

النجف وبحكم موقع النجف الكائن على حدود الصحراء، وكونها مركزا دينيا واجتماعيا فريدا، ووقوعها على طريق القوافل القادمة من الغرب من حلب، وتستقطب الكثير من المسافرين ، فيمرون بها أو يتوقفون فيها فترة من الزمن. ويظهر مما جاء في كتابات من الرحالة الأوربيين في تلك الفترة ، إن القوافل كانت تسير بين حلب وأصفهان كان بوسعها ان تسلك الطريق نحو الجنوب قليلا ويجتاز بادية صغيرة ثم يمر بعانة والنجف وبغداد والبصرة.

٤-٣ النجف الموقع الجغرافي

وتقع على حافة الهضبة الغربية العراقية التي عند نهايتها تقوم الحدود السعودية وتبعد عن فرات الكوفة (١٠) كيلومترات تقريبا وهي من الناحية الادارية محافظة من محافظات القطر العراقي الوسطي وقد اصبحت محافظة بعد صدور المرسوم الجمهوري المرقم ٤٢ في ١٩٧٦/٢/٢٩ وكانت قبل ذلك قضاء تابعا لمحافظة كربلاء. يحدها من الشمال والشمال الشرقي مدينة كربلاء ومن الجنوب والغرب منخفض بحر النجف ومن الشرق مدينة الكوفة. (الدجيلي، جعفر، ج١، ١٩٩٣م، ص١١٥)

ويتمثل موضعها الجغرافي بربوة مرتفعة ولهذا تعتبر النجف كمسناة بظهر الكوفة تمنع عنها مسيل الماء. حيث ترتفع الهضبة ٥٥م عن سطح البحر وتنحدر٢٥م عند الكوفة لتلتقي بنهر الفرات من جهة الشرق وتلتقي ببحر النجف من الجهة الغربية وعلى منحدر ١٥ من سطح البحر ، وتطل من الجنوب الغربي على منخفض بحر النجف وتطل من جهتي الشمال الشرقي على فضاء فسيح تشغله مقبرة وادي السلام المعروفة، اما من جهة الغرب فالصحراء الغربية وتمتد إلى الشرق من المدينة اراضٍ زراعية باتجاه الكوفة. (احمد سوسة، ١٩٤٥، ص٢٦٥)

تعتمد النجف اقتصادياً على التجارة بما تعرضه في اسواقها لسد طلب الزوار والسواح الاجانب وطلب المناطق المجاورة لها وبما تصدره من الغلال الغذائية إلى البادية وبعض مناطق الجزيرة العربية ويعود إلى عاملين رئيسيين هما: العامل الديني (عن طريق الزوار الذين يؤمونها في مواسم كثيرة من السنة من داخل العراق ومن خارجه)، والموقع الجغرافي (كتجمع ومركز تجاري بين العراق وبادية الجزيرة العربية القريبة منها). (الدجيلي، جعفر، ج١، ١٩٩٣م، ص١٥٠)

٤-٤ النجف قديماً

بدون شك ان مدينة النجف الاشرف القديمة هي مدينة تاريخية ذات معالم وخصائص تميزها عن غيرها من المدن، كما انها شهدت تغييرات عديدة بمرور الوقت ربما اخرجها من منظورها التقليدي. حيث كانت مدينة النجف تضم قبل الفتح الإسلامي مجموعة من الاديرة المسيحية وعدداً من بيوت الرهبان وبعض القصور المنتشرة والى جانب هذا كان هناك انتشار بدوي في اطراف الحيرة، حيث عرفت هذه المنطقة مصيداً ومتنزهاً للمناذرة

والساسانيين. ويشير صالح احمد العلي إلى موضع الحيرة فيقول: بعدها عن مدينة الكوفة بما يعادل الثلاثة أميال، لمكان يعرف بالنجف يرويها نهر يدعى نهر الحيرة". إلا انه من الواضح بان المدينة تقع ما بين قضاء الحيرة ومدينتي الكوفة والنجف الحاليتين لان معظم التلال والمكتشفات الأثرية تمت في المثلث الحاصل ما بين الكوفة والنجف والحيرة الحالية والمثلث يقع إلى الجهة الغربية من نهر الفرات، وعلى الأرجح فان أطراف الحيرة مطلة على الفرات. (مالك صبري قديفة، ٢٠٠٦، ص٩٥)

وقد اصبحت بعد الفتح الإسلامي خاضعة للحكم الإسلامي وازدات اهميتها بشكل كبير بعد ان بويع الامام على عليه السلام للخلافة وانتقاله إلى الكوفة كمركز للخلافة الإسلامية. وحتى عام ٦٦٢م عند مقتل الامام علي عليه السلام ودفنه في ارض النجف التي لم تكن سوى قرية صغيرة لا تأخذ شكلاً منتظماً، وقد دفن امام المتقين عليه السلام في طرف هذا المكان.

٤-٥ التطور العمراني للمركز التاريخي

يصف المستشرق آلوا موسيل عام ١٩١٢م النجف بأنها مرتفع أجرد تقع عليه مجموعة بيوت، وأن باب شمالياً يمتد من شارع السوق وهو شارع عريض يتجه نحو الجنوب ويسمى جزء المدينة الواقع غرب السوق (شمرت) والجزء الواقع شرق السوق (زقرت)، وباجتياز السوق تصل إلى الجامع العظيم الرائع جامع الامام علي حيث دفن علي عليه السلام صهر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتوجد فوق الباب الشمالية الغربية للمدينة: الإدارة المحلية (البلدية) ويلحق سكان النجف مساحات من الاراضي بأملاكهم كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ولكن اكبر مصادر رزقهم يأتي من الزوار.(موسيل، دون سنة نشر، ص٥٩) ويأتي وصف (تكسيرا) للنجف انها كانت محاطة بسور امتدت اليه يد الاهمال، وقد كانت تبدو فيها امارات الخراب والاهمال بوضوح، فبعد أن كانت تحتوي على (٦٠٠٠-٧٠٠٠)بيت مبني بجودة عالية في الغالب امستاقل من الستمئة على اكثر التقادير. ويأتي ذكره للروضة المقدسة وبنائها وزخرفتها خالياً من الاشارة إلى القباب والمآذن. (الدجيلي، ج٤، ١٩٩٤م، ص١٩٢)

كما ازدهرت النجف عمرانياً وعلمياً في القرن السابع والثامن الهجري، وتواردت على النجف بعد تمصيرها ادوار مختلفة ومنها القرن العاشر والحادي عشر والذي منعت فيه الامراض والحروب الطاحنة بين الصفويين والعثمانيين من توسع المدينة وكادت ان تكون

سبب في فناءها إلى ان جاء القرن الثاني عشر والثالث عشر لتعود إلى حالتها الاولى. (آل محبوبة، ج١، ١٩٨٦م، ص٢).

وعند بدأ تمصير الكوفة في القرن الثاني للهجرة واخذت هذه المدينة بالتوسع بعد هذا التاريخ وتمتعت بازدهار في العهد البويهي. (الحكيم، ج١، ٢٠٠٦م، ص٣٢٤)

وبالنتيجة يتكون المركز التاريخي من اربع محال هي محلة المشراق وهي الاقدم ومحلة العمارة (ويفضل السكن فيهما لوقوعهما بين الحرمين الشريفين (الروضة العلوية في النجف والروضة الحسينية في كربلاء) ويفسر ذلك كثرة مراقد العلماء والصالحين فيها)، ومحلة البراق، ومحلة الحويش حديثة العهد نسبة إلى المحلات السابقة(ويذكر الدجيلي في الجزء الأول من موسوعة النجف الاشرف (ص١١٥) ان مدينة النجف قد اصبحت محافظة بعد صدور المرسوم الجمهوري المرقم ٤٢ في ١٩٧٦/٢/٢٩ وكانت قبل ذلك قضاء تابعاً إلى محافظة كربلاء. ويحدها من الشمال والشمال الشرقي مدينة كربلاء ومن الجنوب والغرب منخفض بحر النجف ومن الشرق مدينة الكوفة). (آل محبوبة، ج١، ١٩٨٦م، ص٢٣)

ولأهمية مركز المدينة الديني فقد ظهرت أولى المدارس (عام ١٠٧٥م) وفي اثناء هذه المرحلة بدأت المناطق السكنية تحيط بالمرقد الشريف وظهرت محلات جديدة، وازداد عدد السكان بشكل كبير ثم تناقص في القرن الخامس عشر الميلادي بفعل انتشار الامراض والاوبئة وانهيار الابنية في المدينة. حيث يمكن تحديد ثلاث وظائف رئيسية تدعم النشاط الديني تقوم بها المدينة القديمة (وهي مركز عالمي ومحلي لزوار الروضة الحيدرية المقدسة، مركز محلي واقليمي لأعمال الدفن وزوار مقبرة وادي السلام، مركز الحوزات العلمية والمدارس الدينية). كما اكتسبت مدينة النجف القديمة اهميتها التجارية ونشاطها الاقتصادي بشكل رئيسي من وجود المرقد الشريف للإمام علي عليه السلام والاعداد الكبيرة من الزائرين التي تقصده والذي اثر بصورة رئيسية في الشكل الحضري للمدينة القديمة، حيث ساهمت هذه الاعداد في تعزيز اعمال بناء الفنادق في المدينة القديمة.

وقد تغير شكل المدينة في الفترات الحديثة كثيراً، ففي ايام القائم مقام جعفر حمندي سنة ١٣٥٠هـ فتحت ابواب في سور النجف وخططت ساحة واسعة جنوب البلدة المقدسة واعلنت قطعها للبيع، فاشترى النجفيون منها وعمرت بفضل تعمير الحكومة لمدرستين

ومستشفى وبناء حمام حديث من قبل احد التجار، وسميت بالغازية باسم الملك غازي الذي وضع الحجر الاساس لتلك المحلة والتي اعتبرت المحلة الخامسة في النجف والتي تضاهي البلدة القديمة. (آل محبوبة، ج١، ١٩٨٦م، ص٢٧)

كما كانت الاسوار تحيط بالمدينة وتحتويها بالكامل حتى العشرينات من القرن العشرين، حتى ظهرت اول التغييرات الكبيرة على النسيج الحضري للمدينة بهدم السور ليحل محله شارع يحيط بالمدينة عرف بشارع السور (المحيط) على خط مسار سور المدينة القديمة. وقد تم فصل محلات المدينة القديمة الاربعة في حقبة الخمسينات وذلك عبر شق طرق رئيسية بعرض يصل حتى ٢٠ متراً لكل منها لتربط منطقة المرقد الشريف بشارع السور قاطعة ازقة وممرات المدينة القديمة المعروفة بطابعها التقليدي والتأريخي والتي سميت بالعمارة والمشراق والبراق والحويش. وقد لعبت الاسوار دوراً رئيسياً عبر التاريخ في تشكيل النسيج الحضري للمدينة، فضلاً عن حمايته من التدمير والتخريب.

لقد كانت الهجمات الوهابية المتكررة على النجف واستدامة الخطر الناجم عنها سببا مهما من الاسباب التي ادت إلى انتظام سكانها في جماعات واحزاب تستهدف تنظيم الدفاع عن البلدة والعمل على صد الخطر الوهابي عنها، وهذا سبب من اسباب بناء الاسوار والحفاظ عليها ضمن حدود المدينة. وآخر هذه الاسوار ظل عامرا حتى سنة ١٩٣٧م الذي شيد في بداية القرن الثامن عشر الميلادي ودام اكثر من مائتين عام نضجت خلالها المدينة واتسعت وتزايد عدد سكانها واصبحت معدة للتوسع الحضري خارج نطاق تلك الاسوار، حيث عمدت الحكومة حين ذاك إلى هدم اكثره وذلك لغرض توسيع المدينة. بلغ سمك السور حوالي تسعة امتار ونصف، وارتفاعه الحقيقي حين تم بناؤه لا يقل عن (٣٨) متراً، وتؤكده الشواخص الموجودة حتى اليوم في شارع الرابطة بالنجف الاشرف وكذلك في محلة العمارة المحصورة بين منطقتي صافي الصفا والمشراق. (الدجيلي، ج٤، ١٩٩٤م، ص٢٨٧،٢٩١) وفي الوقت الحاضر يمثل شارع السور الواقع الاثري لإسوار النجف القديمة حيث يحيط بالمدينة القديمة ويطوقها بمحاذاة سور المدينة الدفاعي القديم.

٤-٦ المكونات العمرانية والحضرية للمركز التاريخي

إن اهم المكونات الحضرية في مركز المدينة التاريخي المرقد الشريف (أساس تكوين

المدينة) والنسيج العمراني (رغم ضعف ترابط بين القديم والجديد وتهرءه الظاهر نتيجة التقادم الزمني وقلة اعمال الصيانة واسباب اخرى)دون اهمال تنوع الفعاليات ضمن ذلك النسيج، إلاّ أن مكون المقبرة ورغم خلوها من المنشآت الا انها من المكونات المهمة لمركز المدينة باعتبارها ثاني اكبر مقبرة في العالم وتأخذ اهميتها من بعض النصوص الدينية التي تؤكد على اهمية هذه البقعة ولاشتمالها على مراقد انبياء وصالحين. ولا يوجد تنويع حقيقي في استخدام الشواخص الحضرية والمنحوتات في خط الافق الحضري لمركز مدينة النجف الاشرف، وقد تغير نمط الحركة في المدينة بالكامل وتمتلك الشوارع في المركز التاريخي الخصوصية للنسيج التقليدي والتوجيه للنواة الحضرية (المرقد) بما يعطي الخصوصية العمرانية لمركز المدينة.

والظاهر في النسيج الحضري خصوصاً مع تداخل الفعاليات المختلفة (التجاري، الديني، السكني) عدم وضوح الانماط البنائية والحضرية خصوصاً في معطيات الشكل الحضري العام لمركز المدينة، وظهور التصرف الشخصي وغير الموجه من قبل تحكم الافراد بأملاكهم مما يهدد بفوضى حضرية لا تلاءم النسيج التقليدي للمركز التاريخي. ويبقى غياب الانماط الاساسية للتدخل واختيار أنماط وفعاليات النقاط الرئيسية في المدينة كالساحات والمؤسسات التذكارية والابنية العامة من اهم المشكلات التي يعانيها النسيج التقليدي خصوصا مع القرارات الفردية المسيرة من اطراف التدخل في تلك البيئة، فالسيطرة على المدينة لا يمكن ان تكون قادمة من مجرد تنظيم المخططات الاساسية. (حسام ساجت، ٢٠١٣، ص١٦٩).

ويمكن الاشارة إلى المفردات العمرانية لمركز مدينة النجف الاشرف التاريخي بما يأتي:-

الروضة الحيدرية: ويقع في قلب المدينة القديمة وتهيمن قبته الذهبية ومأذنة على المشهد البصري ويمثل مركز الجذب الرئيسي الذي يولد العديد من النشاطات الدينية والحضرية. ويعد المرقد الشريف وهيمنته على النسيج التقليدي العنصر الاهم المحدد للخصائص العمرانية في البيئة العمرانية المبنية، وله تأثر كبير على الوظائف الدينية والتجارية والسياحية.

السوق الكبير: يقع في الطريق الشرقي للمدينة المؤدي إلى المرقد الشريف، ويعد من اهم هذه المحاور التي تختلف في طبيعة تكوينها الحضري، ويتميز بحدوده المتمثلة بشارع زين العابدين من الشمال والصادق من الجنوب اللذين تم شقهما في الخمسينات من القرن الماضي.

الازقة والشوارع الضيقة: وهي شبكة الطرق وممرات المشاة التي تنتشر وفق نسق عضوي يتم ضمنه توزيع قطع الاراضي بما يشكل النسيج الحضري القائم، حيث تتشكل بينها التكتلات الحضرية التي تكون المحلات أو الاحياء السكنية. وتساعد هذه الازقة على قدرة المشاة العالمية بالنفاذ من حي إلى آخر.

الدور التقليدية: تتشكل الدور بصورة متراصة تخترقها الممرات والازقة الملتوية والمؤدية إلى هذه البيوت، ويمتاز نسيج المدينة القديمة بكثافة البيوت ذات النمط العمراني التقليدي التي تمركزت بصورة رئيسية حول المرقد الشريف للإمام علي عليه السلام، ويمكن ارجاع ذلك إلى العلاقة القوية التي تربط الناس بالمرقد التي تزداد بالاقتراب منه.

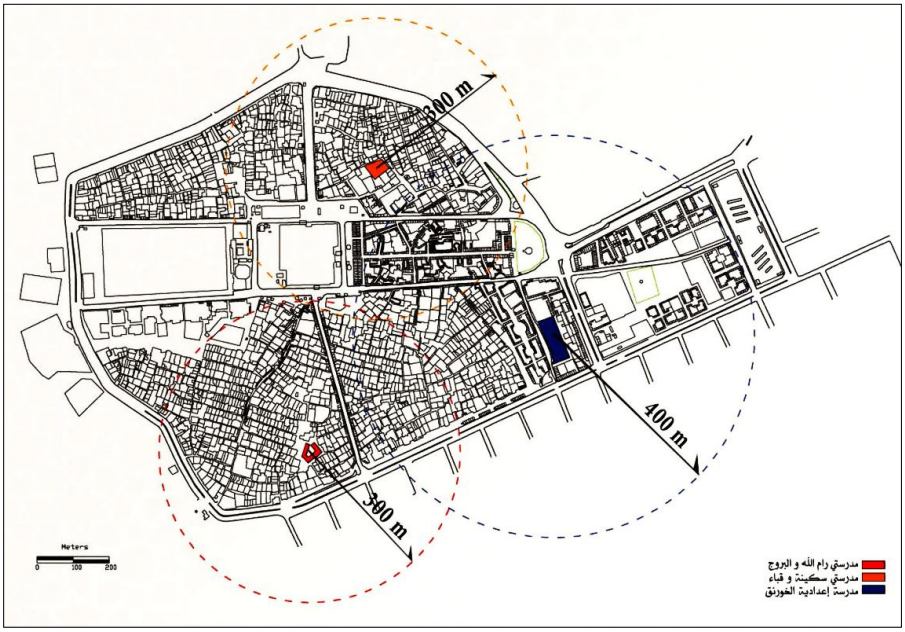

شكل (٤-١٩): اماكن المدارس الدينة في المركز التاريخي

ويمكن ان تكون من المكونات المهمة والاساسية في تركيب المدينة المقدسة واساس في تطوير الواقع العمراني.

الجوامع والحسينيات: وهي كثيرة حيث اشتهرت المدينة القديمة بجوامعها وحسينياتها التاريخية من ناحية الطرز المعماري، وهي صغيرة الحجم بالمقارنة ببقية المساجد والجوامع الموجودة في المدن الكبيرة وغالبيتها لا تحتوي على صحن لصغر مساحتها، ومعظم الجوامع لا تحتوي على مأذنة. شكل (٤-١٩)

المدارس الدينية: ان وجود المدارس الدينية التابعة للحوزة العلمية في النجف الاشرف له اهمية يرى في واقع حال المدينة والتي تتبع الطابع التقليدي في طريقة التدريس المعروف بنظام الحلقات، وتمثل احد اهم مكونات النسيج الحضري في المدينة وسبب من اسباب وجودها لما تمثله من قبلة لطلاب الفقه في العالم الإسلامي.

المراقد الصغيرة والمقامات: هي ابنية بسيطة تختلف في احجامها وطريقة انشائها حيث يتوافد اليها الزوار عند زيارتهم لمدينة النجف الاشرف خصوصاً في مواسم الزيارات الدينية المهمة.

المكتبات الدينية والخانات وغيرها: وهي مكتبات خاصة وعامه تضم مطبوعات مختلفة ومخطوطات في شتى العلوم، ولا توجد بالضرورة ابنية مستقلة لهذه المكتبات حيث تمثل جزءاً لا يتجزء من الحسينيات والجوامع والمدارس والبيوت(للافراد وطلاب العلم).

ويتكون النسيج الحضري لمدينة النجف الاشرف القديمة من مجموعة من التكتلات التي تشكل بدورها المحلات الاربعة المعروفة. كما يرتبط الفضاء الحضري لمركز مدينة النجف التاريخي بالفعاليات الاجتماعية وتفاعل الافراد فيما بينهم ضمن ذلك الفضاء بما يضمن التأثير عليهم أو ما يحدد سلوكهم، ولا يمكن الاستغناء عن هذا المؤشر في تقييم مجموعة من البنى المادية لتشكيل الفضاء الحضري لمركز المدينة التاريخي. غير ان اغلب الابنية المهمة (ذات البعد التاريخي) تمتزج بالنسيج التقليدي غير الظاهر في اغلب الاحيان والمخفي بالأبنية ذات القيمة الضعيفة عمرانياً.

٥-١ السياق العمراني والبعد الحضري للمركز التاريخي

ان مركز المدينة القديمة بسياقها العمراني تحمل خصائص تقليدية الا انها مهددة بالإزالة والتغيير ولا تصمد امام التوجه العام لاستعمالات الارض ومتطلبات العصر من تكنولوجيا وتقنية وغيرها الا بتدخل واعي. (هيثم عبد الحسين، ٢٠١٠، ص١٨٢)

إن السياق الحضري التقليدي هو سياق مفعم بالطاقات المتنوعة لتعدد مصادره، حيث ان كل نتاج مكون له يشترك مع النتاجات الأخرى المكونة للسياق بتعددية الخصائص والمصادر التي نبع منها النتاج ذاته.. حيث نجد ان هذه النتاجات التقليدية قد تناولت وبعت من الطبيعة والثقافة والاقتصاد والتقنية وغيرها. (هيثم عبد الحسين، ٢٠١٠، ص٢٤١)

إن سياق مدينة النجف القديمة يكاد يكون سياقا هجينا وانه يعيش حلة صراع بين السياق التقليدي والسياق المعاصر الوظيفي البحت، ولهذا يحتاج إلى دقة بالتعامل والتشخيص وحل المشاكل الحضرية وفقا لنظرة معمقة. (هيثم عبد الحسين، ٢٠١٠، ص٢٤١) وهنا النتاج الحضري للمدينة التقليدية القديمة هو نتاج منصهر ضمن الكل ويساهم فيه بطريقة التلازم والتماسك، بمعنى ان إي إزالة لأي جزء بدون سبب وجيه يشير إلى خلل حضري كبير ، ينعكس ويمتده تأثيره إلى طبيعة السياق نفسه أو طاقة السياق ذاتها. (هيثم عبد الحسين، ٢٠١٠، ص٢٤١)

إن شق الشوارع وجذب رؤوس الأموال للمدينة وعدم الاهتمام بالأبنية التراثية وعدم صيانتها شجع ذلك إلى زيادة التهديم والإزالة وتحول الاستعمالات الحضرية إلى استعمالات اخرى غير استعمالها الأصلي، مما ينذر بإزالة كبيرة للنسيج التقليدي وهيمنه النسيج المعاصر. (هيثم عبد الحسين، ٢٠١٠، ص٢٤١)

ويتضح من مجموع ما تقدم ان مرقد الامام الشريف هو الاساس في نمو مركز المدينة التاريخي والجوهر الحقيقي في تطوره، فكان المرقد بمثابة المركز(كما في وظيفة المسجد الجامع للمدن العربية الإسلامية) الذي نمت حوله النشاطات الدينية والاجتماعية والتجارية والخدمية والتعليمية اضافة إلى فعاليات السكن.

وتجتمع في البيئة التاريخية لمركز المدينة الخصائص الفيزياوية (المادية)، والاجتماعية في أدراك الخصائص ومنح الطابع والشخصية للمشهد الحضري واعطاء الإحساس بالمكان أو الهوية المكانية والمرتبطة بعملية الادراك للأفراد كأساس في فهم المدينة ككل. وتبرز ذاكرة المدينة التأريخية عبر صور المدينة التي تلهم العواطف وتعطي ما يميز مدينة عن اخرى، حيث يتميز التنظيم والتماسك البصري لخليط المباني والشوارع والفضاءات في المركز التاريخي لمدينة النجف الاشرف بوجود الصفة التجارية المتلاحمة مع حركة الافراد على المحاور الرئيسية. (حسام ساجت، ٢٠١٣، ص١٦٥)

ومن الجدير بالذكر بان المباني ذات الطابع السكني تشكل العدد الأكبر في المدينة القديمة وتبلغ ١٢٩٥ بناية، بينما يبلغ عدد المباني التجارية ٦٦٥ بناية. ويظهر المسح الميداني بأن النسبة الأكبر من استعمالات الارض في المدينة القديمة يرجع إلى الجانب السكني

والتجاري، حيث يشكل الاستخدام السكني حوالي ٣٤.٩٪ بمساحة كلية تبلغ ١٥٤٣١٤.٤متر مربع تقريباً، بينما يبلغ الاستعمال التجاري حوالي ٢٣٪ من مجموع المساحات في المدينة ويشغل ١٠١٤٢٣.٦ متر مربع تقريبا. وتتوزع النسب الباقية ما بين استعمالات دينية وفنادق وفضاءات متعددة الاستخدامات وباقي الخدمات الاخرى. (ديوان، ٢٠١٢م) وتتميز البيئة السكانية في مدينة النجف القديمة بمكوناتها الحضرية ذات المقياس الانساني وتجمعها حول نواة حضرية (المرقد الامام علي عليه السلام) بقطر٤٠٠ متر تقريباً وهي تمثل مسافة السير على الاقدام إلى حدود النسيج التاريخي للمدينة حيث شارع السور الذي يفصل ما بين التجمعات السكنية الحديثة والنسيج الحضري التقليدي.

يمثل المركز التاريخي لمدينة النجف الاشرف التأريخي مظهرا مميزاً على ما يملكه من طبيعة خاصة لشبكة الطرق (السابلة والسيارات) ضمن مركز النسيج التاريخي والمرتبط بالكتلة الرئيسية لمرقد الامام على عليه السلام الذي يوفر طاقات وامكانيات خاصة لهذا المركز.

ان الترتيب البصري لمركز مدينة النجف الاشرف التاريخي يمكن ان يوصف بانه ترتيب بصري فوضوي تحول من صورة واحدة للمدينة التقليدية إلى استعراض الانماط الحديثة واستعراض للعناصر المهيمنة على طول الافق الحضري. ويظهر تأثير القرارات اليومية التراكمية للمستثمرين واصحاب العقار والادارات المحلية بشكل واضح على مظهر المدينة للاستفادة القصوى من الامكانات التي يوفرها المركز التاريخي لمدينة النجف الاشرف. (حسام ساجت، ٢٠١٣، ص١٦٤)

تتميز اغلب التراكيب البانورامية لمراكز المدن التاريخية بالضعف عموماً، مع غياب واضح للوحدة النظامية بين تراكيبه نتيجة للمسافات الواضحة والكبيرة نسبياً بين الابنية (وخاصة العالية منها)، وغياب التنوع والابداع في نسق المدينة. وعندها يغيب عن خط السماء الرموز التاريخية التي ترمز إلى قوة اجزاءها المتطورة ثقافياً عبر قرون والتكيفات التي تعكس ثقافة المجتمع بسبب المنافسة التي يضفيها الابنية العالية ضمن الحدود الخارجية للمحاور الحركية في مركز المدينة. ومنها غياب واضح إلى الافق الحضري التقليدي بسبب التشريعات الحكومية وشروط البناء ومنها تحديد الكثافات الاساسية والارتفاعات البنائية داخل مراكز المدن التي تحدد مورفولوجيا الافق الحضري. (حسام ساجت، ٢٠١٣، ص١٦٥)

وتبرز العلاقة المهمة للفضاء الحضري ذي الخصوصية العالية المحافظة بالارتباط بالمكان واعتبار ان الفرد اساس تركيب الفضاء. ويتطلب هذا اعطاء الاهمية القصوى للفعاليات الاجتماعية داخل الفضاءات الحضرية والتي يتم بموجبها الاهتمام بالمتطلبات البيئية والمعمارية والتخطيطية من قبل المصمم المعماري أو اصحاب الخبرة العملية في البناء.

وقد جاء المخطط الاساسي لمدينة النجف لدوكسيادس عام ١٩٥٨م وهي أولى المحاولات التخطيطية ليضع تصوراً مفاده ان المدينة القديمة هي النهاية الغربية لمحور قوي يربط المدينة القديمة بمدينة الكوفة، فيما تنتشر اعمال البناء والتوسع على جانبي هذا المحور وبعمق (٢) كم. حيث يتصف النمو الحضري العمراني لمدينة النجف الاشرف بما فيها المدينة القديمة في المراحل السابقة لعام ١٩٥٨م بافتقاره إلى التخطيط والدراسات المعمقة التي تحدد النمو العمراني وتوزيع الفعاليات والنشاطات المختلفة ضمن المخطط الاساس للمدينة.

وتشمل الابنية الدينية والتاريخية العامة واهمها وجود المرقد الشريف للإمام علي عليه السلام وباقي المراقد والرموز التراثية ذات الطابع التاريخي أو الديني. وكذلك التكتلات الحضرية أو الابنية المحددة لبعض الانشطة كالنشاط السكني والتجاري. والفضاء الحضري والمتمثل بالفناءات العامة والخاصة والفضوات والعكود والمسارات الرئيسية والثانوية والازقة والساحات والحدائق العامة والتي تعد عنصراً مهماً في الحفاظ على طبيعة نسيج المدينة.

يتصف البناء في المدينة القديمة بتلاصق المباني وضيق الازقة المقتصرة على مرور الاشخاص والعربات التي تجرها الحيوانات، وكذلك قلة المساحات العامة المفتوحة نسبة لمساحة البناء في كل محلة من محلات المدينة القديمة.

٥-٢ المقومات الحضرية لمدينة النجف المقدسة.

تشير العناصر الأساسية في التركيب الحضري للمدينة المقدسة إلى ضرورة استيعاب المدينة من خلال هياكلها العمرانية، والمسارات الحركية، والتفاعل مع مفرداتها البصرية، واستيعاب وتلبية الاحتياجات المادية والمعنوية للحياة الاجتماعية فيها من خلال تنوع وتكامل الفعاليات الحضرية والتي تتميز بطغيان الوظيفة الأساسية للمرقد الشريف ومشاركة الوظائف السكنية مع التجارية في الهيمنة على النسيج التقليدي، ويمكن إدراجها بالجدول التالي:

	العناصر الأساسية	التصنيف
١	المرقد الشريف	ديني
٢	المحاور التجارية والأسواق	تجاري
٣	السكن المؤقت (الفنادق)	تجاري
٤	المدارس الدينية (الحوزة العلمية) والمساجد والحسينيات	ديني
٥	مقبرة وادي السلام	ديني
٦	شبكة الطرق والمواصلات والخدمات	خدمي
٧	السكن الاعتيادي للسكان المحليين	خدمي
٨	القطاع الصناعي	صناعي
٩	القطاع الزراعي	زراعي

جدول (١) تصنيف العناصر الأساسية للنسيج الحضري

٦ـ استنتاجات.

- أصل القدسية المكانية في مدينة مكة يرجع بالأساس إلى تكريم الله سبحانه وتعالى إلى هذه البقعة المباركة، ويمكن ان يرجع هذا الاختيار إلى اسباب طبيعية، فمكة مركز الكون ويمكن ان تلعب الطاقة الايجابية من مركز الكون دورا مهما في طبيعة المجتمعات والتعاملات الإنسانية بالخصوص.
- الكوفة والنجف وكربلاء مثلث مكاني قدسي، وقد لعبت دورا أساسياً في احداث تاريخية مهمة لدى المسلمين، وسيكون مسرحا مهما لأحداث مستقبلية متعلقة بظهور الامام المهدي عليه السلام، ولا عرو فالطبيعية المقدسة للمكان ظهرت لأكثر من ديانة وذكرت فضائلها في اكثر من دين سماوي، لذلك تحتفظ البقعة المكانية بأسرار قدسية مهمة ترتبط بأحداث ومسببات على الصعيد الانساني.
- يرجع نشوء المدينة المقدسة إلى المركز الديني بالغالب وهو مركز الجذب الرئيسي الذي يولد العديد من النشاطات الدينية والحضرية، حيث تلعب دوراً هاماً في القيم الاجتماعية ومصدر اساسي لهوية المدينة وتستقطب اعداد كبيرة جداً من الزائرين.
- ثلاث أنواع من القدسية المكانية، الأول وهي المكان المقدس المطلق ويمتلك هذا المكان القدسية بالأساس لمجموعة من الخواص الدينية أو الطبيعية ربما والذي تمت الاشارة اليه من قبل الديانات السماوية كما في مكة، والنوع الثاني المدن التي اكتسبت قدسيتها نتيجة لأحداث مهمة فيه ويكون فيه الخواص مكتسبة كما في المدينة المنورة والتي اتخذت من احداث التي ارتبطت بالسيرة النبوية المطهرة نزرا

من طهارة وقدسية النبي الكريم ﷺ. والاخيرة المدن التي اكتسبت طبيعة التقديس من الخصوصية المكانية المرتبطة بأشخاص صالحين المرتبطين مكانيا بالمدينة كما في مدينة النجف والكاظمية وكربلاء حيث ضريح الأئمة عليهم السلام والتي اكتسبت قدسيتها من قدسية الأشخاص المدفونين بالبقعة المكانية المحددة.

هوامش البحث

(١) كانت صحيفة الإندبندنت البريطانية قد انتقد هدم أجزاء من الحرم المكي لتوسعته بنشره تحقيقاً تحت عنوان "الصور التي لا تريد السعودية للعالم رؤيتها.. وأدلة على هدم أقدس الآثار الإسلامية في مكة". ومن هذه الاجزاء الأعمدة العثمانية والعباسية في مكة المكرمة المنحوتة بالخط العربي وحملت أسماء صحابة النبي محمد ومؤرخة لحظات مهمة في حياة نبي الإسلام. ويؤرخ أحد الأعمدة -التي يعتقد أنه هدم بالكامل- لمعراج النبي محمد ﷺ إلى السماء في ليلة القدر.

قائمة المصادر

١. القرآن الكريم.
٢. احمد سوسة، وادي الفرات ومشروع سدة الهندية، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٤٥م.
٣. آل محبوبة، جعفر الشيخ باقر، ماضي النجف وحاضرها، الجزء الأول، دار الاضواء، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.
٤. الحكيم، حسن عيسى، المفصل في تاريخ النجف الاشرف، الجزء الأول: من عصر ما قبل الإسلام حتى نهاية الحكم العثماني، المكتبة الحيدرية، قم المقدسة، الطبعة الاولى، ١٤٢٨هـ -٢٠٠٦م.
٥. البراقي، السيد حسين بن السيد احمد، تاريخ الكوفة، تحرير واضافة السيد محمد صادق بحر العلوم، دار الاضواء، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٧م.
٦. بوزورث، كليفورد، شاخت، جوزيف، تراث الإسلام (الجزء الأول)، عالم المعرفة (٨)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٥م.
٧. تاريخ مكة المكرمة، اعداد مجموعة من العلماء باشراف الشيخ صفَي الرحمن المباركفوري، مكتبة دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الاولى، ٢٠٠٢م.
٨. حسام ساجت عويد، التحولات المورفولوجية في مراكز المدن التاريخية، اطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد، ٢٠١٣م.

٩. الحسني، نبيل، الانثروبولوجيا الاجتماعية الثقافية لمجتمع الكوفة عند الامام الحسين عليه السلام: دراسة إسلامية في علم الاناسة المعاصر، قسم الشؤون الفكرية والثقافية، العتبة الحسينية المقدسة، كربلاء، ٢٠٠٩م.
١٠. الخليلي، جعفر، موسوعة العتبات المقدسة: قسم الكاظمية، الجزء الأول، الطبعة الأولى، مطبعة دار التعارف، بغداد، ١٩٦٧.
١١. الدجيلي، جعفر، موسوعة العتبات المقدسة، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، الطبعة الاولى، بيروت، ١٩٩٣م.
١٢. ديوان: مهندسون استشاريون، مسابقة تطوير المنطقة المحيطة بالحضرة الكاظمية الشريفة، بحث منشور ضمن مجموعة البحوث العلمية لـ"المؤتمر الدولي الأول للحفاظ على مراكز المدن العراقية "، بغداد، ٢٠١٠.
١٣. العميد، طاهر مظفر، تأسيس مدينة الكوفة، مجلة المؤرخ العربي، الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، العدد السادس، بغداد، ١٩٧٨م.
١٤. مالك صبري قديفة، صورة العمارة العراقية قبل الإسلام (٥٣٧ ق.م – ٦٣٢ م)، أطروحة مقدمة إلى كلية الهندسة، جامعة بغداد وهي جزء من متطلبات درجة دكتوراه فلسفة في الهندسة المعمارية، ٢٠٠٦م.
١٥. هيثم عبد الحسين علي، طاقة الشكل المعماري ضمن السياق الحضري، دراسة تقويمية لطاقة مشاريع الإملاء الحضري لمدينة النجف الاشرف القديمة، أطروحة دكتوراه غير منشور، المعهد العالي للتخطيط الحضري والإقليمي، جامعة بغداد، ٢٠١٠م.